# نصيحة وتنشتاين

منذ أن قرأت ما كتبه ويتنشتاين قبل أيام في مقال بمجلة إسبانية وأنا فرح لأنه حل لي إشكالياتي الأخيرة مع الكتابة. الحقيقة يجب القول إن إشكالياتي تعود لأكثر من أربع سنوات (إذا تناسينا سنتان إضافيتان ركزت فيهما على كتابة قصيدة طويلة عن الخوف، لم أعد لقراءتها ولم أنشرها ولا أعتقد أنني سأعود لذكرها في يوم ما) ذلك أنني لم أفلح في إنهاء ما أكتب، أو على الأقل لم أكتب شيئاً مهماً، أي من تلك النصوص التي يريحنا تذكرها عندما لا نكتب شيئاً حقيقياً. يقول ويتنشتاين في جملته تلك: "إن كل ما نستطيع التفكير به، نستطيع التفكير به بوضوح، وكل ما نستطيع قوله نستطيع قوله بوضوح، لكن ليس كل ما نستطيع التفكير به نستطيع قوله". ويتنشتاين جاس على جرح تعطلي الذهني، ومنحني إقرارا أنني لم أصل لطريق مسدود بعد، عليه يقول في أسطر أخرى بعد حين أن من لا يستطيع كتابة نص طويل (هو يذكر الرواية تحديداً) وذلك لأنها تتطلب طاقة حياتية، حيوية وصلابة يفتقر لها أكثر من واحد، فالأفضل . وهذا رأي خبير أعجبني . فليلجأ للكتابة المتقطعة.

أمسكت منذ لحظتها بالحل السحري المسمى (كتابة متقطعة. مقطعية. انفصالية.. الخ)، لأنني لا أملك غيرها في الواقع. ففي دفاتري، وارشيفات الكمبيوتر، نصوص متجزأة، أفكار، حلول معالجة واهية، حوارات طويلة،

سيناريوهات حكائيه وغيرها الكثير، أقف إزائها حائراً، فما الحل لرتقها الواحدة بالأخرى، فلا أجد معيناً يعينني، حتى توصلت لحل ويتنشتاين السحري.

في الواقع أنا لست من الذين يقرأون المقالات عادة، ولا تفاصيل نصائح الكتاب لآخرين، ذلك إن أغلبها بالنسبة لي مغرضة، بل إنها مليئة بكذب مفضوح مثل تلك التي تبتدئ بـ "لا أعلم متى كان ذلك، ولكن للوهلة الأولى، خطرت لي فكرة النص عندما تذكرت ما يمكن أن يحدث لي وأنا طفل صغير، بدلاً من السقوط من عربة مسرعة، شاهدت أبي يقع صريعاً تحت عجلات عربة يقودها حصان هائج، فبرقت لحظتها ما يمكن أن يساعدني بعدها بأعوام على صياغة فكرة الرواية الأساسية...الخ " وهي على فكرة لكاتب تعجبني رواياته ولا أطيق تصريحاته. ولكنني قبل أيام، الأفضل أن أقول إنه كان يوم أحد، كنت قد اشتريت عدد جريدة البايبس الأسبوعي قبل دخولي مترو الأنفاق. كنت في طريقي لملاقاة صديقي الروائي محسن الرملي في محطة معينة اتفقنا عليها، كي يقلنا القطار نفسه حتى المطار لاستقبال علي بدر، روائي عراقي آخر، القادم من عمان لألقاء محاضرة في أشبيلية، وكان قد أتصل قبلها بيوم يعلن قدومه ورغبته رؤيتنا في المطار لأنه سيتجه مباشرة لأشبيلية (قلت له في الهاتف وكأننا نعرف بعضنا منذ سنين: عيني علاوي راح نكون بانتظارك، لا تقلق!).

في قطار المترو بدأت قراءة الملحق وانتهيت من تصفحه حال وصولنا المطار برحلة استغرقت ربع ساعة. كنت في حِلٍ من الحديث مع محسن، فقد كانت شفتاه متورمتان نتيجة قرصة بعوضة مجاري سامة كما شخصها الطبيب. الاستغراب الوحيد الذي بدر مني، هو أنني لم أر أو أعثر أو أسمع بإسباني قد قرصته بعوضة، ففي كل البلد لم أر بعوضة واحدة ولا أثر ما يدل عليها. على أية حال لم أستطع مناقشة ذلك مع محسن، فسيكون بلا فائدة، وسنكون أشبه بزوج وزوجة، هي تتحدث والزوج يهز برأسه. من هنا، تركت الصحيفة بيد محسن

وتصفحت الملحق، هناك عثرت على إجابة ويتنشتاين في مقال كتبه عنه روائي آخر هو الأسباني بيلا ماتاس، صاحب الرواية المدهشة: بارتلبي وشركاؤه. المقال يدور عنه، عن كتابه الأخير المترجم للأسبانية، وعن غرائبياته في التأكيد على أن الكلمات قد بدأت تهجرنا، وأن بهذا التأكيد قد قيل كل شيء، في إشارة لجملة بيكيت المكررة دائماً.

المهم أنني كنت هائماً بتسجيل تلك الجملة المنقذة، وقررت تدوينها في دفتر ملاحظات، وشغلت ذهني دقائق انتظارنا لوصول علي بدر، عندها أحسست بثقل كبير ينزاح عن كاهلي، وشعرت أنني لا بد أن أعود اليوم نفسه ليلاً للكتابة المتقطعة، حتى أرى اكتمالها المفاجئ بلا أدنى تعب ولا هم.

لكنني في الحقيقة لم أعد للكتابة تلك الليلة كما دلت عليه لهفتي في الجملة السابقة، ولا في الليالي التالية.

عدت للكتابة بعد شهرين تامين من التمرن. هنا يجب أن أشطب كلمة (كتابة) وأبحث لها عن مصطلح ومفردة أخرى، فالواقع إن تجربتي لم يكن لها علاقة بالكتابة بشيء، مثلما لم يكن لي تجربة سابقة كذلك. فيمكن أن نقول ببساطة (عملية تسجيل الرواية). وحتى لا تصابوا بدهشة واستغراب. بعضكم بالطبع سيهز شعفة رأسه . فلأعد إلى حيث تركتموني على قدم وساق عند البوابة رقم واحد في انتظار إطلالة علي بدر من وراء حاجز الزجاج المظلل. كنت وقتها، بينما أنا في هيجان إعادة تكرار جملة وتنشتاين، عين عند الباب وعين أخرى تتلفت لتفقد محسن غافياً عند زاوية كرسي، لا أرى منه غير شفة متورمة تبدو كلطخة مضخمة في وجه في لوحة للرسام بيكون.

هل من المفيد القول إن علي بدر قد وصل متأخراً ساعة ونصف الساعة، أقصد وصول طائرته، وبين القبلات والتحايا والاحتضان، لم يهدأ علي بعدها من

الحديث المتواصل عن كل شيء. ونحن نتمشى، نجلس في كافتريا المطار، نخرج، نوصله لمحطة القطار، وحديثه متشعب، متفرق ما أن يترك محطة وصل نهايتها حتى يتحول لمسلك آخر. كان قد حزر نوايانا الدفينة برغبة معرفة كل شيء عن البلاد، عن أسماء نتشوق لنرى أين مضى بها الدهر، وجملة الهذر المتكرر عن الرغبة والشوق والمنفى والسنين الطوال المترفقة بنا. تصوروا أن محسن استطاع تلك الساعات من لقائنا (المطاري) مع علي بدر أن يهمس بجملتين خطيرتين، ظننتهما خرجتا من جهة غير معلومة، أستلهما كسحب خيط عملية قيصرية، هما: كيف تركت العراق؟ وهل جلبت لنا صحف بغدادية؟، مع ما يشبه ابتسامة مثل شق جرح عميق. لم يتأخر علي بالإجابة، فقال لا عن السؤالين: "لأنني جئت من الأردن وليس بغداد"، ولم ينتظر ليرى أن كان محسن سيقدر على التعقيب أو النطق بسؤال آخر، فانبرى يكمل قصة ذلك المفكر العراقي الشاب الذي رافقه أمسية قصف بغدادية يسأله حائراً: ترى برأيك ما هي الطروحات الجديدة اليوم في فكر فوكو!؛ يقول علي، بينما لم يكن مني سوى لطم رأسي لأنني كنت منشغلاً بالفرار وقتها من أن تصلني أطلاقة أو صلية مدفعية أو خرطة قنبلة عنقودية. "تصوروا هذا البطران منشغل بفوكو، بينما كنا نأكل الخراء في عز القصف والموت المجاني"، ثم مشيراً للصلع البارز في الهامة: "هل ترون بربكم سبباً وجيهاً لفقدانه المبكر أكثر بداهة مما رويته لكم؟!". قرر بعدها أن نجلس من جديد، هذه المرة، في صالة انتظار القطار الذي سيوصله إلى أشبيلية بعد ساعة واحدة.

حتى لا أكرر أنني كنت منشرحاً بانطلاقة علي بدر وتجاذبنا الأحاديث كأننا ولدنا في بيت واحد، أريد أن أقول أنني وبسبب من إلحاح جملة ويتنشتاين على ذهني لم يبق في مخيلتي عن علي بدر. متجاهلاً للحظة حكاية المفكر البغدادي الخارقة للعادة كحكاياتنا نحن العراقيون. سوى علامتين، إحداهما حقيبته الطولانية الثقيلة التي تحتل ظهره العريض، لم يضعها على الأرض سوى لمرة واحدة عندما

أخرج كتبه التي أهدانا نسخاً منها مع علبة بقلاوة مغلفة اشتراها من ساحة الحسين في عمان، والشيء الثاني قلادة من خيط نايلون متعلق ما بين رقبته وجيب قمصلته الذي يتدلى منها لاقطان صوتيان كأذنين ممطوطتين وزائدتين عن الحاجة.

بدأت دائخاً مثل جاهل في لعبة جديدة وأنا أتمعن بخيوط علي المتحركة مع تقلصات جسده، فما كان منه إلا أن توقف وسألني: ماذا دهاك، ألا تعرف ما هذه؟

رفعت حاجبي دهشة وفكرت بديسك مضغوط أو كاميرا. قال لي: لا ما حزرت. هي أفضل من كل ذلك، هذا سر إبداعي أخشى أن أفضحه أمامكم!

لم يتطلب فضح السر سوى لحظات هو زمن فركه لأرنبة أنفه، فكان أن قال: لكما أستطيع قوله، في كل الوقت الذي أمضيه متنقلاً بين بلد وآخر، ولا أجد وقتاً ولا كمبيوتراً للكتابة، أسجلها صوتياً على هذا الجهاز الصغير المخفي في الجيب، أحيانا يطول التسجيل فتخرج منه نصوص ومقالات جاهزة وأشياء أخرى أجهلها حقاً ولكن لا بد أن تنفع في نص ما. و.. بهذا لا أضيع الوقت في الانتظار الممل في الصالات والمطارات.

قبل أن يدخل الحاجز الأخير لصعود القطار، كان قد طلب الحديث مع محسن على انفراد، همس في أذنه بكلمات لم أتميز منها ولا حرف واحد، كما أنني لم أستطع تخمين ذلك من رد فعل محسن، فقد كان وجهه أكثر ضبابية من ساعة الصباح.

عندما عدت للبيت بعد توديع علي بدر وترك محسن عند بوابة بيته، لم يكن في مخيلتي سوى صورة ذلك الجهاز، فقررت أن ألف رأسي وأنام مفكراً في كيفية الحصول على جهاز مثله في اليوم التالي، فقد جاء الحل في وقته ليساعدني على إتمام ما نويت عليه من الكتابة المتقطعة على ذمة جملة وتنشتاين تلك، التي سجلتها في دفتري العتيد، ولم أمل من تكرارها كل لحظة.

لا بد أنكم قد خمنتم الآن أنني ومنذ بداية الحكاية لم أكتب حرفاً من هذه القصة، فالحقيقة أنها بالكامل مسجلة على هذا الجهاز المسمى (أم بي 3) علامة (أوندا ماكس) المحمول باليد أو في جيب القميص أو متمايلاً كأية ميدالية ثمينة في الرقبة. من هنا كانت تجهيزاتي للحصول عليه شديدة التعقيد، فميزانية الإعانة الاجتماعية التي أتلقاها من البلدية كأي عاطل عن العمل لا تغطي طموحاتي الروائية، من هنا بدأت العمل (بالأسود حسب مصطلحات سوق الجملة) لستة عشر ساعة يومياً حتى أوفر مبلغاً لا بأس به لشراء جهاز يكفيني العمر كله، وكفيل بإنقاذ كل أعمالي الروائية القادمة، تلك التي سجلت ملاحظات عنها، التي فكرت بها ولم أنجزها، أو تلك التي لم يحن بعد الوقت للتفكير بها. ليس هذا وحسب، بل تطلب مني العمل لضمان مبلغ نشرها فيما بعد أو على الأقل نقلها على الكمبيوتر حال الانتهاء من تسجيلها، وكأي كاتب شديد الثقة بالنفس ولا وقت لديه لضياعه سوى التفكير بأعماله، ادخرت جزءاً من المال لدفعه لشخص كي يقوم بتفريغ الأرشيفات الصوتية، فمهمتي انتهت بتسجيلها وانتظار رؤية النص مكتوباً على الورق.

قررت بحل سحري استدانة المبلغ من تاجر عراقي على شرط العمل عنده لمدة شهر وبضعة أيام، والغرض هو استغلال تلك الأيام لتسجيل ما أريد، حتى وأنا أعمل. في النهاية هربت من العمل ما أن أتممت شهراً واحداً، وبقي التاجر يلاحقني ويوصي عليّ الآخرين ليطالبني بالأيام المتبقية، ولكن هذه الأشياء لا أريد أن أشغل بالكم بها، فهي تحدث وحدثت بما يكفي لرصدها والتوثيق لها في كتاب مستقل.

أثناء تلك الأيام فكرت بمعاودة كتابة قصة طويلة أو رواية قصيرة بتوصيفات أخرى، كنت قد فكرت بها مراراً وهي: سفر في غرفة. والسبب يعود لفكرتها

الرئيسية المتمثلة بما يشبه كتابة يوميات متقطعة، وهي ما تؤكد قابليتي الكتابية التي توصلت لها حسب نصيحة وتنشتاين. بطل الحكاية ما أن يستيقظ من نومه، حتى يجد نفسه محاصراً بذبابة تلاحقه بأزيزها، مما يمنعه من الخروج ومواصلة حياته، فكان أن غافلها بحركة هروب مفاجئة وخدعها بأن تخلص منها بإخراجها من الغرفة. لكنها بقيت عند باب الغرفة المقفل تعلن حضورها وتهديدها بأزيزها الشبيه بمروحية طنانة. عندها وللوقت الطويل في سجن غرفته، لا يجد من وسيلة سوى استذكار ما مر به من حياة لا معنى لها، فيبتكر لنفسه رحلات وهمية قام بها، مزيج من رسائل وقراءات وتخيلات يظن بها ما له علاقة ببلدان ونساء وأماكن تعرَّف عليها بشكل جيد. النوم، الصيام، تحريك الجسد، الحاجة الشخصية الملحة كلها يقضيها بين الأركان الأربعة، إلى أن تصبح غرفته بمثابة عالم مصغر هو عالمه الحقيقي. ما أن ينتهي من كل ما اعتقد أنها حياته قد كتبت لتوثيقها لمن يريد قراءتها بعد موته، في تلك اللحظة السحرية مثل لحظات الأفلام المنتجة بعجالة واضحة، يكتشف أن الباب مفتوح منذ اليوم الأول لحبسه، وأن الذبابة لا أثر يدل عليها. الآن أتذكر أنني قد تركت كتابتها في فترة لاحقة لأن محسن الرملي. عندما كان باستطاعته الكلام بالطبع بشفتين سليمتين. قد ذكّرني بأن الحكاية نسخة مفبركة لفكرة كافكوية عن التحول والمسخ. لم اقتنع، ولكن بسبب كسلي العريق ليس إلا، كنت قد تركتها بلا إتمام.

أخيراً أستطيع القول إن عملية الكتابة الصوتية قد أتت بثمارها، فها هي ارشيفات 72 ساعة مسجلة بتنسيق دقيق ومكتمل.

كنت قد سمعت من آخرين بوجود امرأة تكتب النصوص على الكمبيوتر لقاء أجر مناسب، فطلبت هاتفها واتفقت معها على تفريغ روايتي الصوتية. اندهشت الشابة المغربية . لم أسألها عن أسمها بعد . مما أطلب ولكنها طمأنتني على أن ذلك ليس بمستحيل فهي تستخدم جهازاً مشابهاً لسماع الموسيقى، لكن أجرته

ستكون مختلفة عن كتابة النصوص الأخرى. وافقت وتركتها عندها على أن أستلمها بعد أسبوع. أحصيت ما بقي معي من نقود ووجدتها كافية لرحلة قصيرة إلى مدينة في جنوب أسبانيا، وهي فرصة لمصالحة صاحبتي الإسبانية التي هجرتها طوال شهرين أو أكثر لرغبتي بتخصيص الوقت لتسجيل روايتي. فكرت بأسبوع استرخاء رفقة الأسبانية والمناخ المعتدل، وصممت مع نفسي ألا أفكر بأي شيء حتى انتهاء الأسبوع.

لم أحلم بعطلة مريحة كهذه أبداً، لم أعمل فيها شيئاً غير الأكل والتفرج والأرجحة في الفراش لساعات.

عندما انتهت رحلتي وعدت للبيت وجدت أكثر من رسالة صوتية مسجلة في حاكي الهاتف لامرأة اسمها عيشة، لم تفعل غير أن تكرر جملة واحدة: أستاذ عبدالهادي، أنا عيشة، الرجاء الأتصال بي بسرعة، فقد حصلت مشكلة مع كتابك.

بخيال سفرتي المريحة، فكرت بكل الاحتمالات السيئة الممكنة سوى أن ارشيفات 72 ساعة لأيام طويلة من التفكير والمراجعة لا وجود لها إطلاقا. ضاعت بغمضة عين.

لم أترك لعنة إلا رميتها ولا حالة من الهياج والصراخ والعويل دون تجريب. كانت الشابة المغربية المدعوة عيشة قد أخبرتني بأن الأرشيفات الصوتية فارغة إلا من صوت طنين مستمر (يشبه طنين حشرة)، وهي متأكدة من أن المشكلة كانت إثناء التسجيل، ولا بد أن الجهاز خادع بشكل ما.

لم أصدق كلياً وأنا أستمع لها لأنني جربته أكثر من مرة قبل تسجيل روايتي (سفر في غرفة)، فمضيت بسبابي ولعناتي هذه المرة تنصب على علي بدر وابتكاراته الإلكترونية. قلت: اللعنة عليك يا علي بدر وعلى هذه المصيبة.

– من علي بدر هذا، وما علاقته بالرواية؟ سألت عيشة التي ما تزال على الخط.

سكت وجلست على الكرسي بلا أي تفكير معين سوى من ترديد اللعنات.

– اسمع يا أستاذ عبدالهادي، لتسمح لي، فقد حصل مع آخرين أن فقدوا كتباً بأكملها، لا عليك، لقد قرأت لك في الانترنيت نصوصاً جميلة أعجبتني جداً، ومتأكدة أنك تستطيع كتابة أفضل رواية. لا أعرف ماذا أقول، لأنني أشعر بالتقصير، رجاء لو تريد سماع الأرشيفات لتتأكد بنفسك فما زلت احتفظ بها. يمكنك المرور بأي وقت؟

– لا عليك يا آنسة عيشة، الوقت متأخر الآن، سأرى لاحقاً. لا عليك.

قد تكون نهاية محتملة للحكاية بأكملها عند هذا الحد، لكن الوضع تغير مع جملة عيشة التالية:

– لا أبداً يمكنك المجيء، أنا أسهر لوقت متأخر، ويسعدني أن تزورني الآن لو شئت، ليس عندي ما أضيفك به.. قنينة نبيذ أحمر من لاريوخا، يعجبك النبيذ؟!

للمرة الأولى أنتبه لصوت عيشة، رنة حبالها الصوتية، ونطقها لكلمة ريوخا بدلال غريب.

توقف لساني عن اللعن، وسمعت نفسي تقول: سآتي حالاً يا عيشة.. لن أتأخر.

شعرت أخيراً أن أحداً يدرك ما أريد الوصول إليه، شخص مثل عيشة، تعتقد أنني كاتب لا بأس به، لم تنعتني بالفشل، فقط تعتقد أنني جربت الطريق من باب خاطئ مثل أية بداية لا نحسن الامساك بخيطها، ثم حدثتني عن أنها تعرف من الوسائل الإلكترونية الجديدة ما يساعدني على إنجازها " أفضل من طريقتك التسجيلية " قالت لي، ثم أضافت " الكتابة المقطعية أفضل الحلول، عندما تأتي سأعيرك كتاب (الوسيلة الأخرى) لكاتب أسمه وتنشتاين، هو فيسلوف ومفكر أكثر منه روائي، لا أعرف إن كنت قد سمعت به وبنظريته ولكنك ستتفق مع وصفاته، سترى بنفسك، لا تتأخر".

في الطريق لملاقاة عيشة في بيتها، لم يخطر على بالي، وأسم علي بدر وهيئته لا تفارق خيالي، سوى الضحك بصوت عالٍ دون أن أهتم بنظرات الناس في الشارع، و أنا أردد: على عنادك يا علي بدر على الأقل سأغرق بأحضان عيشة ( يا روح ديالي، باغي غير ندوي معها للمسحر) أفضل من بطل روايتك (صخب ونساء وكاتب مغمور) الذي لم يحظ لا بشقته ولا بقبلة من شفاه عيشة، وبالتالي هي تعرف وتنشتاين وقرأت له مثلي وهذا شيء خارق لا مجال للتفكير بطريقة تلاقي أفكار أفضل منها، فعاودني الحنين من جديد لتكرار جملته العتيدة مفكراً الآن وحسب بوجه عيشة وهي ترددها أمامي.